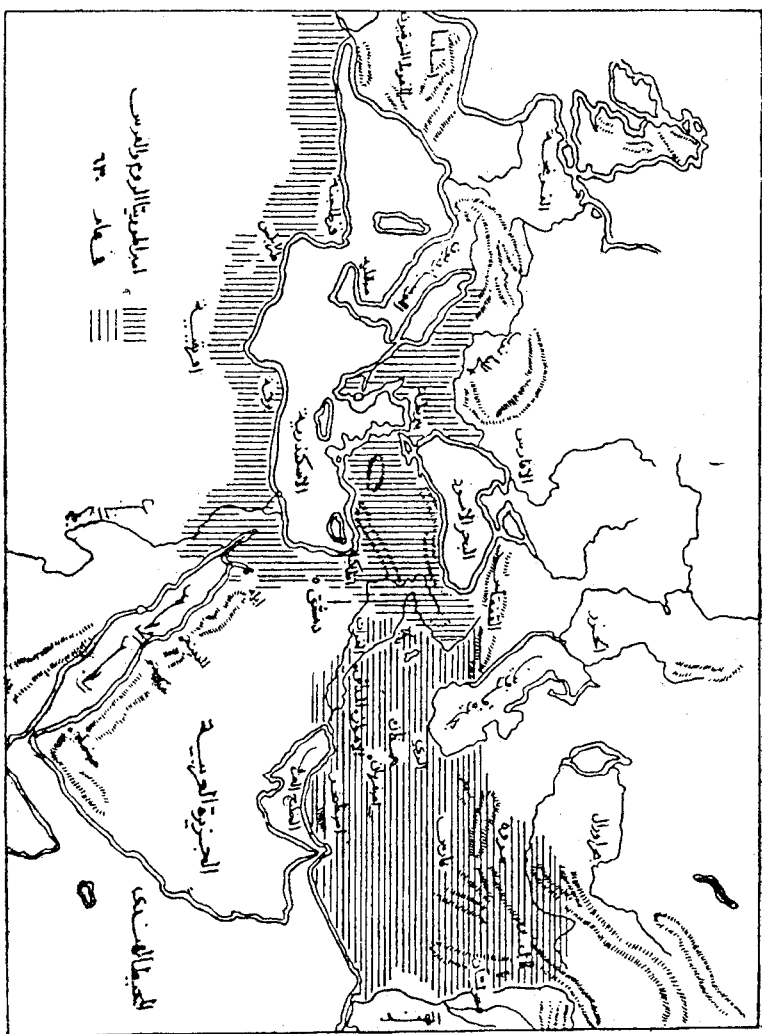


قوة نالثة.. بين قوتين

كان النبى عليه الصلاة والسلام فى الجزيرة العربية، يقوم بنشر الدعوة.. .
ويجابه قريشا ويحطم كبرياءها فى بدر، ويستعد لجولات أخرى مع قريش،
ومع اليهود الذين ينكثون عهودهم، ومع ما جاروه من قبائل أخرى تنضم
بعضها إلى مكة وبعضها الآخر ينظر أى كفة ترجح.. . كفة النبى أم كفة أعداء
الإسلام.. . بينما الأوضاع قلقة فى شبه الجزيرة العربية كلها.. . البعض
يخشى على مستقبله وعلى ما درج عليه من عادات وتقاليد، جاء الإسلام
ليجتثها من الأعماق.. . والبعض الآخر يراقب الأحداث وهى تجرى بسرعة.. .
وكل يوم يمر تزداد قوة الإسلام والمسلمين.

بينما النبى فى المدينة يقوم بكل هذه الأعباء الجسام.. . مناضلا
ومجاهدا.. . وملبيا نداء ربه.. . وفى نفس الوقت عابدا متهجدا لله.. . يقوم
ليله.. . حتى.. . تتورم قدماه.. . وهو يناجى ربه العظيم.. . ويقيم أعظم
مجتمع عرفه التاريخ.. . بينما كان النبى يقوم بكل هذا.. . كانت تدور أحداث
خطيرة على مستوى العالم الخارجى.. . أو القوتين الكبيرتين اللتين كانت
بأيديهما مقاليد ذلك العالم.. . وهما دولة الفرس، حيث يتربع الأكاسرة على
عرشها.. . ودولة الرومان حيث يتربع القياصرة.. . فدارت بينهما الحروب
المهلكة.. . وما كان يدور بخلد أكاسرة الفرس، وأباطرة روما.. . وهما
يتصوران أنهما يملكان السيادة على الدنيا كلها.. . أنهما سيواجهان هذه الدولة
الجديدة التى يقيم دعامتها على العدل.. . محمد بن عبد الله عليه الصلاة
والسلام.. . فى المدينة.



وكان الصراع على أشده بين الدولتين الكبيرتين.. فعندما اعتلى هرقل عرش القسطنطينية عام ٦١٠ ميلادية.. وما كاد يتربع عليه.. حتى اجتاحت جيوش كسرى أنطاكية والقدس عام ٦١٤، وبعدها بعامين سقطت مصر تحت سنبك جيوش كسرى.. كما زحفت الجيوش الفارسية الأخرى عبر آسيا الصغرى، حتى اقتربت من أبواب القسطنطينية.. وفي الوقت الذي داهم فيه الامبراطورية خطر الفرس، كان هناك خطر آخر قادم على الامبراطورية، يهدد كيائها، قادم من مناطق روسيا الجنوبية.. وكان شعب من البرابرة يطلق عليه الأفراس.. وكان هذا الجيش قد استطاع اجتياح البلقان، مقتربا من أسوار القسطنطينية.

وأمام هذا الخطر الزاحف والكاسح من الفرس ومن البرابرة.. قرر كسرى أن يهرب، إلى قرطاجنة، حيث يوطد دعائم ملكه هناك في الشمال الأفريقي!!

ولكن البطريك نصحه أن يعقد هدنة مع أعدائه.. وخصوصا الفرس، حتى يدعم ملكه.. وبعد مفاوضات مضية وافق كسرى على الهدنة بشروط مهينة للرومان.. فقد فرض على الرومان فدية كبيرة.. قبلها هرقل صاغرا.. لأنه بجانب الأخطار التي كانت تتهدده من الخارج كان الصراع بينه وبين مجلس الشيوخ على أشده، في سبيل أيهما يكون له السلطة، والهيمنة على الحكم.. وأخذ هرقل يخطط لمستقبله ومستقبل الروم.. وبدأ خطته بأن سلم مقاليد الحكم لمجلس الشيوخ والبطريك.. وقرر أن يهرب من الحصار المفروض عليه من الفرس والأفراس، ويحقق طموحاته الحربية، ويستطيع بالفعل أن يخرج بجيش كبير على أسطوله، وعبر الدردنيل ونزل إلى الساحل الشمالي من خليج الإسكندرية وسيطر على (بوابة كيكية) في مضيق جبل طوروس.. وأقام معسكره قريبا من المكان الذي أقام فيه الإسكندر الأكبر، وقهر جيش بزعامه (دارا) قبل هذا التاريخ بألف عام! واستطاع أن يحطم إمدادات الجيش الفارسي ثم يعود عام ٦٢٢ إلى القسطنطينية..

وفى دوامة هذا الصراع بين الامبراطوريتين الكبيرتين اللتين تسيطران على العالم المعروف كله.. كان النبی قد هاجر إلى المدينة یوطد دعائم دعوته.

وظل هرقل بعد ذلك یشن هجمات مضادة على الفرس.. إلى أن استطاع الانتصار على الفرس، وعلى الآفارس، واضطر الفرس إلى الانسحاب من مصر وسوريا ومن ضفاف البسفور أيضا.

وبینما یوالی هرقل انتصاراته على الفرس.. كان یدور فى داخل الأراضى الفارسیة صراع عنیف أيضا على السلطة فقام شیرویه باغتيال والده كسرى أبروین عام (۶۲۸) واتفق الفرس والرومان على معاهدة.. تعود الحدود بینهما إلى ما كانت علیه عام (۶۰۲) ..

یوم عصب

لنرجع إلى مدینة الرسول العظیم.. حیث یفوح عطر النبوة.. وجلال الرسالة.. ولنرجع إلى صراع الكفر مع الإیمان.. فها هی قریش قد عادت إلى مكة ممزقة تعتصرها الأحزان، ویلفها ظلام الهزيمة.. وقد فقدت على ثرى بدر عددا من ساداتها.. وعددا من كبار رؤوس الكفر الذین طالما كادوا للإسلام ورسول الإسلام.. ها هم یرجعون منكسى الرؤوس، فقد أذلّتهم الهزيمة، وجلّلتهم العار.. واستقبلتهم مكة بأثواب الحداد.. وفى الصدور ما فى الصدور من حقد وكمد، وهم یرون راية الإسلام ترتفع فى سماء المدینة.. ویشعرون بأنهم سيعیشون مستقبلا بالغ القتامة.. فمعركة بدر لن تكون الأخيرة.. وتجارّتهم إلى سوريا لن تنجو أبدا من تهديدات المسلمین، وهى فى نفس الوقت عصب حیاتهم.. بل إن الحیاة بلا تجارة تعنى الموت.. والتجارة لابد أن تمر بشكل أو بآخر تحت تهديد المسلمین.. والمسلمون قد أصبحوا قوة یحسب لها ألف حساب.. فلا بد من الثأر.. ولابد من الانتقام.. ولعبت العصبیة القبلیة فعل السحر فى النفوس، فباتت ولا حدیث

لكل بيت إلا الثأر من المسلمين.. والاستعداد لهذا اليوم الذى يمكن أن يرفع فيها المكى رأسه، ويعلن بين القبائل أنه انتقم لهزيمة بدر.. وقد بلغ الحقد منتهاه، حتى مات كمدا عدو الله أبو لهب بعد أن سمع بانتصار المسلمين.

وكان العباس عم النبى يراقب ما يجرى على ساحة مكة بحذر.. وما كانوا يشكون فيه لأنه لم يدخل دين ابن أخيه.. وقد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يبلغ ابن أخيه ما يدبره المشركون حتى لا يفاجئوا النبى فى المدينة بجيشهم ويقضوا على الدعوة فى مركزها.. ولم يكد يمضى عام على هزيمة بدر، حتى خرجت قريش بجيش ضخم يضم ثلاثة آلاف رجل، فيهم مائتا فارس، وسبعمائة من أصحاب الدروع.. وخلف هذا الجيش كانت هناك بعض النسوة ذهبن لتشجيع جيش الكفر، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، والتي كان يغلى الحقد فى قلبها، وخاصة على حمزة عم النبى الذى قتل ابن عمها شيبة فى بدر.. كما أجهز على أبيها عتبة، وقد أغرت عبدا لمطعم بن جبير يسمى (وحشى).. أن يقتل حمزة لانه كان ماهرا فى رمى الحربة.. ووعدته بالمال الكثير إن حقق هذا الأمل العزيز إلى نفسها!!

وسار جيش الكفار صوب المدينة، تهزه النشوة بكثرة عدده وعتاده، وتهزه.. الكبرياء الجريحة فى معركة بدر.. وكان منتهى آمال هذا الجيش هو القضاء على رسول الله نفسه.

وخشى العباس عم النبى أن يهاجم جيش الكفر النبى بغته، فأرسل برسالة إلى ابن أخيه مع رجل يثق فيه من غفار، يحذره من الجيوش القادمة إلى المدينة.. وقد سلم الرجل الرسالة، وكان النبى فى قباء.. وانتشر الخبر فى المدينة، وأخذ اليهود والمنافقون يروجون الإشاعات، ويبدرون الفتن، ويشككون الناس فى النصر.. وأخذ النبى للأمر عدته.. رغم أن الوقت قصير لاستعداد، وكان من رأى النبى أن يظل فى المدينة يدافع عنها من الداخل، وكان ذلك أيضا - بجانب رأى الرسول الكريم - رأى عبد الله ابن أبى، ولكن عددا من الشباب، كان يرى فى ذلك تخاذلا وأنهم لا بد أن

يواجهوا كفار مكة، يذيقونهم نفس الهزيمة التى ذاقوها فى بدر.. وتحمس الكثيرون لهذا رأى.. والنبي كان دائما يستشير أصحابه فيما لا ينزل فيه وحى.. فنزل على رأيهم، وصلى النبي بالناس صلاة العصر، وأمرهم بالاستعداد للقتال.. على أن يبقى الأطفال والنساء فى الحصون، ودخل بيته عليه الصلاة والسلام، ولبس عدة الحرب.. وخرج يقود الناس فى معركة مع الشرك.. ولكن الناس أخذوا يتناقشون فيما حدث من حوار بينهم وبين النبي، فإذا كان النبي قد نزل إلى آراء الناس لأن أكثرهم كان مقتنعا بالخروج خارج المدينة على عكس رأى النبي.. فقد خافوا أن يكون النبي قد حزن لذلك وقرروا أن يعودوا للرسول مرة ثانية يعرضون النزول عند رأيه.

رأى شباب المدينة..

وخرج إليهم الرسول الكريم.. مهيبا.. جليلا.. تطل من قسما
وجهه النور.. فقد تقلد سيفه، وترسه وراء ظهره.. وعرضوا عليه أن يتبعوا مشورته ويحاربوا داخل المدينة، وهو قتال لم تألفه قريش، ولكن النبي قال لهم:

- لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه..

وأخذ النبي ينظم جيشه.. ثلاثة ألوية.. أحدهما يحمل لواءه مصعب ابن عمير عن المهاجرين، والثانى يحمله عن الأوس (أسيد بن حضير) والثالث يمثل الخزرج ويحمله (الجباب بن المنذر)..

وخرج النبي على فرسه فى ألف فارس من المهاجرين والأنصار منهم مائة يلبسون الدروع..

وكم كان المشهد رائعا ومهيبا، فى ذلك اليوم.. وكان اليوم السادس من

شوال فى السنة الثالثة من الهجرة.. وكانت الشمس قد جنحت نحو المغرب، والرسول الكريم يتقدم صوب أحد لملاقاته أعداء الله، بقيادة أبى سفيان ابن حرب، ومضى الرسول الكريم بجيشه، وفى الطريق خرج عبد الله بن أبى بن سلول المنافق الكبير عن جيش الرسول وكان معه ثلثمائة رجل، وعادوا إلى المدينة بحجة أن النبى لم يستمع إلى مشورته فى البقاء فى المدينة، والمحاربة فيها، بينما استمع إلى رأى الشباب!..

وهكذا فقد جيش المسلمين ثلث قوته..

وسار النبى ﷺ، وكان ذلك بعد أن صلى الفجر فى السابع من شوال، عبر جبل أحد.. حتى إذا ما ظهرت الشمس كان النبى قد عسكر بجيشه أمام سفح جبل أحد.. حتى يكون الجيش محميا من الظهر بالجبل، وأمر خمسين رجلا من الذين يحسنون الرمى أن يقفوا فى الأماكن التى حددها لهم فوق جبل أحد، وأمرهم ألا يتركوا أماكنهم مهما كانت نتيجة المعركة، وكان أميرهم عبد الله بن جبير..

وقال النبى لقائدهم:

- انضح الخيل عنا بالسهام فارشقوهم بها، فإن الخيل لا تقدم عليها..
إنا لا نزال غالبين ما ثكنتم مكانكم. «اللهم إنى أشهدك عليهم»..

ووقف النبى العظيم.. بشخصيته الآسرة.. ومهابته، يوجه للمقاتلين حديثا.. ويحثهم على الجهاد: حمد الله واثنى عليه وقال:

- ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به.. ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا ونهيتكم عنه، وانه نفث إلى الروح الأمين انه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن ابطأ عنها.. فاتقوا الله ربكم واجملوا فى طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله.. والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده.. والسلام عليكم..

وأصبح جيش المسلمين معداً أحسن إعداد للدفاع أمام جيش يفوقه عدداً وعتاداً وإذا بالمشركون يذهلهم ما وجدوه من حسن قيادة النبي . .

وكان جيش قريش قد عقد قيادته لأبى سفيان وكان هو قلب الجيش، أما الميمنة فكانت بقيادة خالد بن الوليد . . والميسرة بقيادة عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية بن خلف على رأس المشاة . .

ولما كانت المعركة تبدأ بالمبارزة بين عدد من الفريقين، فقد خرج من صفوف المسلمين، على بن أبى طالب، وحمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبى وقاص، وقتلوا حملة اللواء من قريش من بنى عبد الدار . . وسقط فى بداية المبارزة سبعة من حملة اللواء من قريش . .

وابتدأ القتال عنيفاً . . المسلمون بقاتلون قتال الأبطال . . وفى الساحة ترتفع سيوف المسلمين على رقاب المشركين، فتتطاير الرؤوس . . والرماة على جبل أحد يسندون ظهور المسلمين . . ووسط المعركة برزت سيوف هى الموت بعينه تحصد أعداء الله . . برزت سيوف حمزة، وعلى، وأبى دجانة . . وتحت ضغط سيوفهم تهاوت الرؤوس . . وكان هناك (وحشى) يتربص حمزة، وانتهاز فرصة تعثره فى حفرة، وسقوطه على ظهره فرماه بحربته فسقط شهيداً . .

خطبة الرماة..

وانكشف العدو . . وتراجعوا أمام ضربات المسلمين . . تاركين قتلاهم . . وأسلحتهم . . وتصور الرماة أن قريشا قد هزمت هزيمة منكرة، فنزلوا من فوق أحد طمعا فى الغنائم . . وعصوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ، وكان خالد بن الوليد يرقب أرض المعركة بعينى صقر . . ووجدها فرصة أن يلتف حول المسلمين، بعد أن ترك الرماة أماكنهم . . ويفاجئهم من الخلف، ويصبح المسلمون محاصرين من الأمام والخلف من جيوش مكة . . ثم كروا على

جيوش المسلمين من كل جانب، وأصاب الهجوم المسلمين بالذهول.. وكان هم قريش الأول هو قتل النبي ﷺ، وتوجه أحدهم إلى مصعب بن عمير فقتله.. وكان يظنه النبي ﷺ، وصاح بأعلى صوته بأنه قتل محمدا.. فإذا بهذا النبأ يهز أوصال المسلمين.. فإذا بعضهم يفر من هول المعركة.. إما إلى صخور أحد، أو في محاولة للعودة إلى المدينة.

ووقف النبي في المعركة صامدا.. مجالدا أعداءه.. وقلة من المؤمنين يحمونه بأجسامهم.. ويفدونهم بأرواحهم.. وعند الشدة تبرز معادن الرجال.. في هذه المعركة ظهرت بطولات أغرب من الخيال.. أناس قرروا أن يستشهدوا فداءً لنبيهم.. فهذا هو طلحة بن عبيد الله يفدى رسول الله بسيف كان موجها إليه، فيتلقاه بيده.. وتطير أصابعه.. ويظل هو في دفاعه المجيد عن النبي ﷺ.

وفي هذا الموقف تبرز شجاعة (أبو دجانة).. وهو يضرب بسيفه أعداء الله.. ويتغنى بأبيات من الشعر.. والأعداء يتساقطون أمام سيفه.. وهو واقف يحمي الرسول الكريم:

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لى النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكبول أضرب بسيف الله والرسول

وهو يقصد أن يضرب فى الصفوف الأمامية كما علمه خليله عليه الصلاة والسلام.. وقد استشهد أبو دجانة بعد أن حارب بسيفه، ثم أخذ يحمي الرسول بجسده، ويتلقى الطعنات الكثيرة، إلى أن خرجت روحه الطاهرة إلى أعظم رحاب.

ومن الصور الرائعة للجهاد، صورة أنس بن النضر، الذى حث بعض القاعدين من المسلمين عن الجهاد، بعد أن صدقوا أن النبى قد قتل، وطلب منهم أن يموتوا على ما مات عليه الرسول الكريم، وقاتل بشجاعة منقطعة النظير، حتى سقط شهيدا..

ويجاهد عبد الرحمن بن عوف جهادا عظيما، حتى كسرت إحدى ساقيه.. وتدافع الكفار صوب الرسول العظيم.. السهام مصوبة نحوه.. والسيوف متجهة إليه.. والرماح تنطلق تريده.. حتى الحجارة استعملوها للليل منه، وكسرت سنة للنبي، وشج وجهه.. وخرجت الدماء تملأ وجهه الشريف.. وتقدم إليه (أبي بن خلف) يريد قتله، فأخذ النبي حربا وصوبها نحوه، فسقط مضرجا في دماؤه.. وبدأ القتال يهدأ.. فقد اعتقد الكافرون أن النبي قد قتل، وكذلك بعض المسلمين، فقريش قد اعتقدت أنها حققت النصر الأعظم بقتلها للنبي.

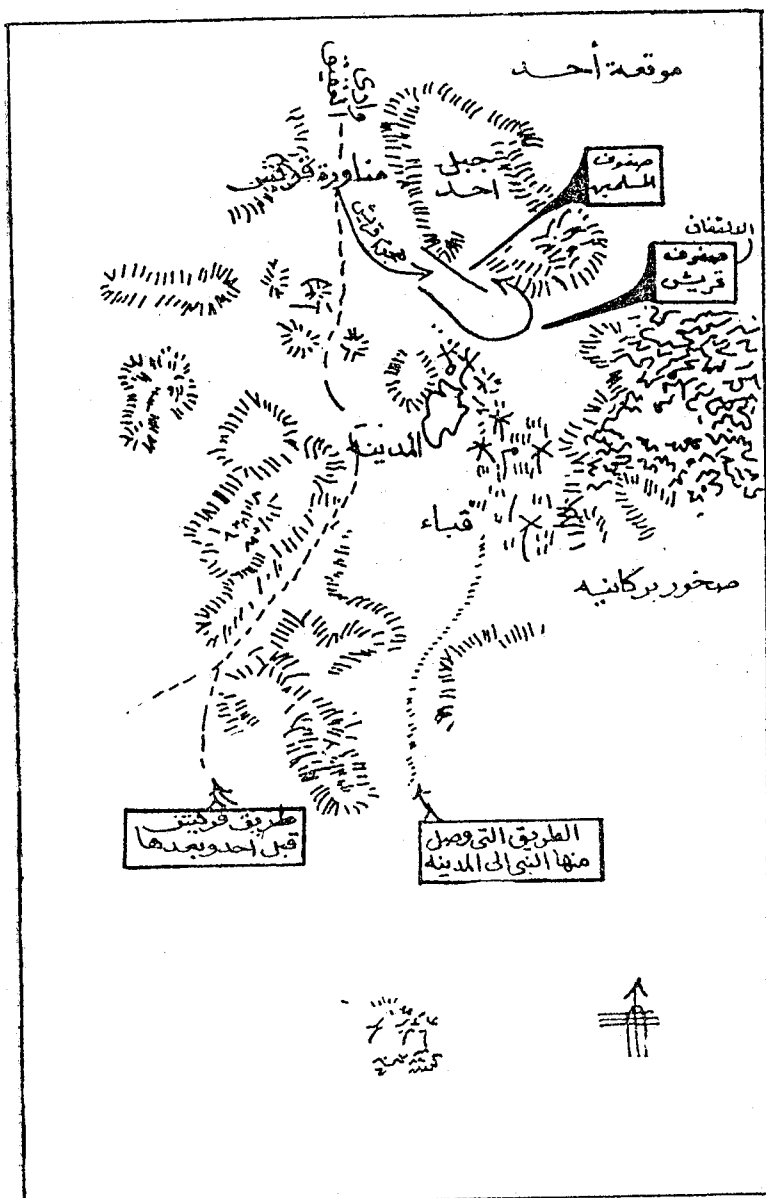
ورأى كعب بن مالك النبي ﷺ، فصاح يبشر المسلمين بأن النبي على قيد الحياة، وأمره النبي بالصمت فصمت، وجاء أبو بكر وعمر، وعلى بن أبي طالب، حيث الرسول الكريم، والدماء تنزف منه. فأخذوه إلى كهف بجبل أحد يشاهد المعركة من مكانه الأمين هذا.

وانشغل المشركون بقتلهم.. وأخذوا يمثلون جثث الشهداء من المسلمين.. وقد بلغت قسوة هند بنت عتبة، أن أخرجت كبد سيد الشهداء حمزة ولاكتها بفمها.. ولم يتورع أبو سفيان نفسه، أن يذهب إلى جثة حمزة، ويضربها برمحه ويقول له: ذق عقق (أى تذوق أيها العاق).

وعندما رآه سيد الأحباش، واستنكر فعلته، خجل وخشى أن يعير بذلك، فطلب من (الحليس) ألا يذكر شيئا عما رآه!

بيننا وبينكم موعد..

وكان منتهى أمل أبي سفيان، أن يتشفى طربا ويتأكد من موت النبي، فنادى المسلمين، يسأل عن النبي وأصحابه.. وساد الصمت.. استجابة لأمر رسول الله.. ولكن عمر بن الخطاب ما كان ليحتمل تشفى أبي سفيان في النبي، وفرحه بموته فرد على أبي سفيان:



- كذبت يا عدو الله .. قد أبقي الله لك ما يسؤوك ..

قال أبو سفيان: أقتل محمداً؟

قال عمر: أنه يسمع كلامك الآن ..

قال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر ..

وصاح أبو سفيان: إن الحرب سجال .. أعل هبل .. أعل هبل ..

أمر النبي عمر أن يرد عليه بقوله: إن الله أعلى وأجل .. لا سواء ..
قتلنا في الجنة .. وقتلاكم في النار.

وأنصرف أبو سفيان وهو يقول: إن موعدكم بدر للعام القادم ..

وأمر الرسول من يرد عليه: نعم هو بيننا وبينكم موعد ..

وأمر النبي على بن أبي طالب أن يتبع قريشا، هل هم يريدون المدينة ..
فالمدينة ليس فيها من يحميها، أم أنهم يتوجهون إلى مكة ..

فقال لعل:

- «أخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون؟ فإن كانوا قد
جنبوا الخيل وساقوا الأبل، فإنهم يريدون المدينة .. والذي نفسى بيده، لئن
أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم».

وخرج على في أثرهم وعاد ليخبر النبي أنهم اتجهوا صوب مكة ..

انتهت المعركة التي سقط فيها سبعون شهيدا من المسلمين، وسقط فيها
من المشركين اثنان وعشرون قتيلًا .. وانفض تراب المعركة .. وخرج المسلمون
يدفنون موتاهم .. هؤلاء الذين مثل بهم المشركون .. وقد خرج النبي من
هذه المعركة مثقلا بالجراح .. فقد كان الهدف الأول لانتقام مكة .. ولكن النبي
العظيم .. الذي قال لعل الذي أحضر له ماء يمسح به جراحه: كيف يفلح
قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟

النبي العظيم رغم جراحه . . وإرهاقه، سأل عن سعد بن الربيع هل هو في الأحياء أم في الأموات؟ وكان سعد جريحا في الرمق الأخير، توجه إليه أحد الأنصار فرآه في آخر لحظات عمره . . من أثر الجراح .

قال له الأنصارى:

- إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر، أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟

قال: أنا فى الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام، وقل له: أن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك . . عنى السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: أنه لا عذر لكم عند الله أن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف . . و . . مات سعد وأخبر الأنصارى خبره لرسول الله .

وخرج النبي إلى ساحة المعركة . . ووجد عمه حمزة، وكيف مثلوا بجسده الطاهر . . وأمام هذا المشهد الحزين . . وجثث الشهداء فى العراء . . وقف أمام جثة حمزة وقال:

- لن أصاب بمثلك أبدا . . ما وقفت موقفاً أغيظ إلىّ من هذا . . إنا لله وإنا إليه راجعون . . رحمك الله يا عمى، لقد كنت وصولا للرحم، فعولا للخيرات، فوالله لئن نصرنى الله عليهم لأمثلن بسبعين منهم .

نزل قوله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

[النحل: ١٢٦].

وجاءت حيث الشهيد العظيم حمزة أخته صفية، ورأت ما أصاب أخاها . . فقالت بكل الإيمان:

- إن يوما أتى عليك ليوم كدرت شمسك وكان مضيئا . .

وكان النبی یخشی علیها من هذا المشهد فأمر ابنها الزبیر أن یردها حتی لا تشاهد ما یحزنها.. ولكنها شاهدت أخاها وترحمت علیه، واحتسبته عند الله.

وفی ساحة المعركة رأى النبی الکریم «مصعب بن عمیر» الداعية الأول للإسلام فی یثرب، وهو راقد بین الشهداء فی حلة بالية.. فقال له الرسول العظیم:

- «لقد رأیتک بمكة، وما بها أحد أرق حلة، ولا أحسن لمة منك ثم أنت الیوم أشعت أغبر الرأس فی بردة!!»

ودفن المسلمون قتلاهم.. وقد أصابهم ما أصابهم من الإعیاء الشدید.. ووقف النبی علی قبورهم وقال:

أنا شهید علی هؤلاء.. إنه ما من جریح یجرح فی الله إلا وبعثه الله یوم القيامة یدمی جرحه، اللون لون الدم، والریح ریح المسک..

ثم یعزم الرسول الکریم علی العودة إلى المدينة.. وحوله الأنصار والمهاجرون.. وفی طریق العودة.. كان یدور فی نفوس المسلمین ما یدور من تلك الأحداث الدائمة.. ماذا لو أطاعوا الرسول.. ولم یخالفوا أمره.. وینزل الرماة من فوق الجبل؟ وماذا لو لم یتفرق البعض منهم عن النبی والمعركة فی أوج عنفوانها؟.. و.. ما أكثر الأسئلة التي دارت فی الأذهان.. لكن النبی الکریم.. أخذ یسیر فی طریقہ إلى مكة.. وهو الذی علی خلق عظیم كما وصفه خالقه فلم یثر حول ما حدث أی حدیث.. ترك أتباعه یتوسعبون بأنفسهم الدرس.. ویعرفون أن النصر وإن كان من عند الله إلا أن علیهم أن یتخذوا أسباب النصر.. من جهاد وكفاح وتضحیة.. وإطاعة لأمر النبی.

ولكن مع ذلك فالنبی الکریم یقول لهم كلمة تطمئن نفوسهم أن ما حدث فی أحد لن یتكرر مرة أخرى.. ولكن الانتصارات سوف تتوالی، وأن المسلمین سیدخلون مكة نفسها حیث بیت الله الحرام. قال لهم:

- والله لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الحجر.

وعاد نبي الله إلى المدينة.

استقبلته النساء اللائي فقدن أزواجهن أو أخواتهن أو أولادهن.. . يعلمن وجوههن الصبر الجميل.. . فقد أطلت في قلوبهن الآمال، وهن يرين رسول الله بينهن.. . أن النبي يشاهد أم سعد بن معاذ التي فقدت ابنها عمر في المعركة.. . فيعزيها الرسول.. . فتقول له: أما إذا رأيته سالما فقد هانت على المصيبة.

وعاد الرسول إلى بيته.. . متعبا.. . وأذن بلال لصلاة المغرب، فخرج إلى المسجد، وصلى بالناس جالسا.

ويعبر القرآن الكريم بكلماته المعجزة، عن هذه المعركة، وما ينبغي أن يستفيد المسلمون بما فيها من دروس.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ثم يصور القرآن العظيم، منزلة هؤلاء الذين آثروا الموت على الحياة دفاعا عن العقيدة:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩)
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

وما كان اليهود والمنافقون في المدينة إلا أن يفرحوا.. . وأن يظهرُوا شماتتهم حيناً، ويخفوها أحياناً.. . ولكن النبي العظيم كان يعرف ما يدور في عقول هؤلاء الكافرين والمنافقين.. . وحتى يظهر لهم أن الإسلام لم يضعف من جراء ما حدث في أحد.. . فإنه قد قرر في اليوم التالي من العودة من أحد، أن يذهب في أثر كفار قريش، وأمر النبي أن يخرج معه للجهاد الذين

شهدوا معه معركة أحد.. رغم جراحهم.. وأمر النبي عبد الله بن أم مكتوم أن يكون أميراً على المدينة أثناء غيابه عنها، وأعطى اللواء لعلي بن أبي طالب.. وأقام بحمراء الأسد ثلاثة أيام.. وعلمت قريش أن النبي قد خرج في أثرهم فقرر أبو سفيان العودة إلى مكة وخشى أن يجابه المسلمين مرة أخرى، فانتصروا عليه، ويذهب النصر الذي حققته مكة في أحد.

وكان هذا الموقف الرائع من النبي ﷺ، هو ما جعل اليهود والمنافقين يخشون قوة المسلمين وبأسهم.. وعلموا أن حركة الإسلام لن تتوقف.. وأن قوة المسلمين لم تضعف.. بل أن هذه المحنة زادتهم إصراراً على مجابهة الكفر والشرك.. وإنهم ماضون مع النبي وهو ينشر الرسالة مهما كانت ضراوة المعارك.. وقد وقع في قبضة المسلمين أثناء عودتهم إلى المدينة (أبو عزة الشاعر) .. وكان النبي قد عفا عنه يوم بدر، على ألا يهجو المسلمين، ووعد بذلك، ولكنه أخلف وعده.. وها هو اليوم وقد وقع في قبضة المسلمين.. فأراد أن يحتال مرة ثانية.. وأن يتوسل للرسول أن يتركه، وأخذ يستعطف النبي، ولكن ما كان أن يخدع المسلمين مرتين.. فأمر النبي بقتله.. بعد أن قال له:

- «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين.. ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»..

* * *